الأسطورة العربية بين الحضور والغياب

د. لوليدي يونس
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة مولاي إسماعيل - المغرب

سأتخذ من الملاحظات التالية منطلقاً للحديث - حسب وجهة نظري - عن غياب ميثولوجيا عربية أو حضورها: -

١ - لا أقصد بمصطلح (أسطورة) هنا المفهوم السائد في المعاجم العربية والقائم على أساس أن الأسطورة هي "الأكاذيب والأباطيل والترهات، والأحاديث التي لا أساس لها من الصحة ولا فائدة ترجى منها،" وإنما أقصد به ترجمة مصطلح (Mythe) ومايحيل عليه من مفاهيم في التراث والثقافة الغربيين مثل "الواقع، والحقيقة، والتعليل، والشرح، والكون. . . إلخ."

٢ - إن كثيراً من الدارسين(*) يقولون بأن غياب الأسطورة العربية ناتج عن وقوف الإسلام سداً منيعاً في وجه الوثنية الجاهلية، وفي وجه كل ما من شأنه أن يمس بجوهر العقيدة الجديد وشكلها، أو يؤدي إلى الشرك بالله. وهذا قول، في نظري، فيه كثير من المبالغة. إذ لا يمكن لأي أحد أن ينكر أن أغلب ما وصلنا عن الحياة الجاهلية، إنما وصلنا عن طريق القرآن، والشعر الجاهلي. فأغلب الذين

يدرسون تاريخ العرب في العصر الجاهلي، يعتمدون على النصوص القرآنية التي تمدهم بسمات هذا المجتمع، وماكان فيه من عبادات، وطقوس، وشعائر، وممارسات، وعادات.

وهل الأساطير إلا حكايات عن الطقوس والشعائر والعبادات، ونشأة الكون، وأصل الأشياء؟ إن في القرآن بسطا للوثنية الجاهلية، وذكراً لبعض آلهة العرب وأصنامهم، وإشارات إلى حياتهم العقائدية والاجتماعية، مما لايصح معه القول بأن الإسلام كان من وراء غياب الأساطير الجاهلية.

٣- هناك من يقول بغياب الأسطورة نتيجة طول الأمد، وبعد المسافة، والنسيان الذي أصاب هذا الجانب من التراث العربي. وهذا أيضاً قول لايستند، في نظري، إلى أي أساس. فالذاكرة العربية التي احتفظت لنا، قبل فترة التدوين، بالشعر الجاهلي، وبالقرآن الكريم، وبالحديث النبوي، وبالسير الشعبية، وماإلى ذلك من قصص، وأشعار، وحكم، وأمثال، ونوادر، وخرافات، لايمكنها أن تنسى الأسطورة وحدها. فإما أن هذه الذاكرة قد احتفظت بكل شيء وإما أنها نسيت كل شيء. أما أن تنسى الأسطورة وحدها دون غيرها مما تحفظه، فهذا قول بعيد عن الموضوعية.

٤- هناك فئة ثالثة ترى أن غياب الأسطورة العربية، ناتج عن حفاظ العربي على شخصيته، وعن التزامه بالواقع، وعن اعتقاده بأنه سليل الغطارفة، وحفيد الأشاوس، لذلك فهو يعتز بشخصيته ولايتنازل عنها أبداً. وسأسوق قولتين تمثلان هذه الفئة الثالثة:

■ يقول محمود السيد حسن مصطفى: "وهذا الحفاظ الشديد من العربي على شخصيته ومقوماته، من طباع وغرائز وعادات وأخلاق، وهذا الاعتزاز الذي تنطوي عليه نفسه لنسبه ودينه وقومه، كل هذا حمى الأمة العربية من أن تنطمس معالمها في طوفان الأحداث والكوارث التي ألمت بها. كما أنه حمى الواقع من أن

تطغى عليه أمواج الأوهام والخيالات (••) ومن هنا لم تلق الرواية رواجاً عند العرب الذين لم يحاولوا الاستغراق فيها أو جعلها تطغى عليهم. ولم يكن ذلك قصوراً منهم - كما أراه- ولاينبغي أن نتهمهم بضعف ملكة الخيال لديهم، أو عدم نضج قدراتهم الفكرية إلى هذا المستوى الروائي، وذلك مايدعيه المستشرقون، وإنما كان قصورهم في خلق مثل هذه الملاحم والأساطير راجعاً إلى احترامهم لشخصيتهم أن يلبسوها غير لباسها وأن يعيروها ماليس لها. ومن ثم دل ذلك على اعتزاز العربي بشخصيته...»[1]

■ ويقول السيد عبدالحافظ عبدربه: «فلم يسمح العربي لنفسه أبداً أن يلعب به الخيال، أو يخدعه زيفه وبريقه حتى تحجب عنه الرؤية الواضحة للعوالم المحيطة به على صورتها الحقيقة، فيما ينبغي له ذلك، وهو الذي عاش الحياة على حقيقتها وبشكلها الطبيعي المعرى من غير رتوش أو تزييف أو صباغ، ومن هذه الزاوية حاول بعض أعداء العرب أن ينفذوا إلى القول بأن العربي كان ضحل الخيال، مهزوز العاطفة، ضيق الأفق، مكتنز التفكير، غير قادر على الإبداع والخلق والابتكار (...) وإنما مرد ذلك كله هو أن ابن البادية وسليل الغطارفة وحفيد الأشاوس العرب كان دائماً - ومازال - يعتز بشخصيته ولايتنازل عنها أبداً ولايخلعها بأي حال من الأحوال مهما كان في حضرة الآلهة الأسطوريين»[2]

ولاشك أن مثل هذه الآراء تسيء إلى الثقافة العربية أكثر مما تخدمها.

٥- أما الذين يقولون بوجود الأسطورة العربية[*] فإن أغلبهم يدعي بأنها متميزة، وذات خصوصيات. لذلك لايجب عقد مقارنة بينها وبين أساطير الشعوب الأخرى مادام هذا الأمر لايخضع للشروط العلمية. وتجدر الإشارة هنا إلى إنه من غير المعقول أن يوجد في أساطير مختلف الشعوب مايجعلها متشابهة ومتوحدة، وأن يوجد في أساطير العرب مايجعلها متميزة ومختلفة. ومعنى ذلك أنه إن وجدت بالفعل أساطير عند العرب، فلابد أن توجد بينها وبين أساطير باقي الشعوب نقط التقاء وتشابه.

لقد انطلقت في هذا المبحث من هذه الملاحظات، لأبين بأنني سأسلك طريقاً مخالفاً لطريق أصحاب تلك الآراء والدراسات. لن أبحث في الشعر الجاهلي عن مظاهر الميثولوجيا العربية، ولن آتي بحشد من العادات والتقاليد وأقول عنها إنها أساطير. ولن أبحث عن مبررات واهية لغياب الأسطورة العربية. وإنما سأحاول البحث - في المجتمع الجاهلي - عن وجود أو غياب الشروط التي تسمح عادة بنشأة الأساطير في مجتمع ما. وهذه الشروط، في نظري، هي:

١- وجود ديانة مافي هذا المجتمع، وذلك نظراً للارتباط الوثيق بين الدين والأسطورة.

٢- انفتاح هذا المجتمع على حضارات ومجتمعات أخرى، مما يسمح بهجرة الأساطير.

٣- قيام نظام في هذا المجتمع على أساس أعراف ونظم ومؤسسات وتقاليد وعادات، وذلك للارتباط الوثيق بين الأساطير وبين هذه المؤسسات والأعراف والتقاليد. فكثيراً ماتحكي الأساطير عن نشأتها وتطوراتها، وتحاول تفسيرها وتسويغ وجدوها.

أ - أما الدين في العصر الجاهلي، فإن الناس لم يكونوا على دين واحد، وإنما كانت لهم مذاهب شتى، وملل مختلفة: "منهم المؤمن بالله ويعد له وثوابه وعقابه ويوم ميعاده، وهؤلاء هم الذين آمنوا ممن كان على دين المسيح عيسى بن مريم ودين موسى عليهما السلام من أهل الكتاب. ومنهم من آمن بالله لكنه أشرك بعبادته الأنصاب والأصنام زاعماً أنها تشفع له عند ربه وتقربه منه تعالى. فكانوا يحجون إليها ويقدمون لها القرابين والهدايا، ويؤدون عندها المناسك والمشاعر، وهؤلاء هم المشركون. ومنهم من عبد الملائكة على أنها بنات الله تشفع عنده، ومنهم من عبد الشيطان والأوثان والكواكب الخالصة من دون الله شأنهم في ذلك شأن غيرهم من كثير من أبناء الأمم السالفة كالهنود والفرس واليونان والرومان.

ومنهم أهل الدهر الذين اتفقوا في إنكارهم للنبوة وللرسالات، لكن بعضاً منهم آمن بالله منكراً الحساب، والبعض الآخر أنكر الخالق ويوم الحساب على السواء (. . .) ومنهم الحنفاء الذين اهتدوا عن طريق التفكير إلى أن لهذا الكون خالقاً، وأن ثمة حياة أخرى فيها يجازي الإنسان خيراً بخير، وشراً بشر"[3]

وهكذت عرفت شبه جزيرة العرب النصرانية، واليهودية، والوثنية، والحنيفية، والمجوسية. فمنها ماوجد في قلب الصحراء بعيداً عن الحضارة والتمدن، ومنها ماوجد في المناطق الشمالية المحاذية لفارس وبيزنطة، ومنها ماوجد في المناطق الجنوبية على مقربة من الحبشة، وتجدر الإشارة إلى أن الديانات اليهودية والنصرانية والمجوسية، لم تنشأ في جزيرة العرب، وإنما وفدت إليها تحت قسوة الاضطهاد السياسي أو الديني. وإذا كان الباحثون يتفقون على أن الوثنية هي أيضاً وافدة على بلاد العرب، فإنهم يختلفون في بساطة هذه الوثنية وتعقيدها. فأحمد ديب شعبو يرى أنه "على العكس من الإغريق، كان العرب يدينون بوثنية أكثر بدائية، وثنية الحجر والصنم."[4] كما أن محمد إبراهيم الفيومي يرى أن وثنية العرب "لاتخرج عن عبادة الحجر من غير شكل فني، أي من غير صورة يخلعها العربي على الحجر نحتاً أو تصويراً، وإنما يكتفي العربي من الحجر بعبادته وحسب."[5] أما أنور الرفاعي فيرى أن الأخبار التي وصلتنا عن الوثنية الجاهلية تدل على أن هذه الوثنية "ليست بسيطة التركيب ولاقريبة المتناول. فما وصلنا منها يدل على أنها مرحلة راقية وأن كثيراً من قديمها قد بقي في متأخرها، وأن بعض أحوالها صيغ بالأفكار اليهودية أو الصابئة أو المسيحية، أو اتحد مع عقائد أجنبية"[6].

وقد حاول مجموعة من الباحثين العرب أن يثبتوا أن العرب عرفوا مختلف الأطوار الميثولوجية التي مر بها الفكر الإنساني عامة. حيث عرفوا الطور الحيوي، وفيه اعتقد العرب أن في كل شيء حياة، واعتقدوا في تأثير الأشجار والجبال. ثم

عرفوا الطور الطوطيمي في بعض مظاهره كتقديس الحيوان وعبادته، مع اختلاف غرض العبادة والتقديس. كما عرفوا الطور الوثني وتعدد الآلهة.[7] إلى درجة قيل معها - حسب زعم بعضهم - أنها بلغت ثلاثمائة وستين صنماً في الكعبة، أي بعدد أيام السنة.

وقد أكد غوستاف لوبون[8] أن العرب أخذوا عن الأمم المجاورة، التي كانوا يتصلون بها، كثيراً من آلهتها. وهكذا فالشرط الموضوعي الأول لوجود الأسطورة، وهو الدين، متوافر في شبه الجزيرة العربية. ولاشك أن الآلهة التي أخذها العرب عن الأمم المجاورة، لم تكن تفد إلى شبه الجزيرة وحدها كأصنام، وإنما كانت تفد معها أيضاً أساطيرها الخاصة بها.

٢- أما الشرط الثاني، وهو الانفتاح على الأمم والحضارات الأخرى، للسماح بهجرة الأساطير، فإن مجموعة من الدراسات حاولت أن تثبت أن العرب ظلوا منغلقين على أنفسهم، خلال عهود طويلة، ولم يتصلوا بالحضارات والأمم الأخرى. فعلى الرغم من أنهم شيدوا في قلب جزيرتهم العريضة المدن والقصور والهياكل، فإنهم "لم يكونوا يشجعون الأجانب على المجيء إليها، ورؤيتها. وقد بقي هؤلاء الأقوام آلاف السنين يحيون حياتهم الخاصة بهم، محافظين على عاداتهم وأخلاقهم متمسكين بآرائهم".[9]

كما يظهر أن جزيرة العرب نجت من الغزو الأجنبي خلا ماأصاب حدودها الشمالية. وهكذا فإن "عظماء الفاتحين من مصريين وأغارقة ورومان وفرس وغيرهم ممن انتهبوا العالم، لم ينالوا شيئاً من جزيرة العرب التي أوصدت دونهم أبوابها."[10] في هذا الإطار لاأدعي أن كل هذه الدراسات العربية والاستشراقية - التي تحدثت عن انغلاق العرب على أنفسهم - كانت خاطئة، وإنما أرى أن هذا الانغلاق لم يكن كلياً، مما كان يسمح بتسرب الكثير من الأشياء إلى شبه جزيرة العرب، ومن جملتها الأساطير، ولعل الملاحظات التالية تثبت ذلك:

أ - رأينا في الشرط السابق أن الديانات اليهودية والنصرانية والمجوسية والوثنية لم تنشأ في جزيرة العرب، وإنما وفدت إليها نتيجة الاضطهاد السياسي أو الديني ومن غير المعقول أن تفد هذه الديانات ولا تفد معها أساطير، علماً بأن لكل ديانة أساطيرها الخاصة، وأينما حلت هذه الديانة حلت معها أساطيرها.

ب - وجدت في سواحل جزيرة العرب قبل الإسلام مستوطنات يونانية نشأت في أماكن عدة على سواحل البحر الأحمر، وسواحل البحر العربي والخليج العربي، وبقي أصحاب تلك المستوطنات في مستوطناتهم فلم يعودوا إلى ديارهم، وصاروا عرباً مثل سائر العرب، يرجعون أنسابهم إلى أصول عربية على عرف العرب.[11] ولاشك أن هؤلاء المستوطنين عندما قدموا إلى جزيرة العرب قد حملوا معهم - على غرار كل المستوطنين والمهاجرين - آلهتهم ولغتهم وثقافتهم وأساطيرهم.

جـ - لقد كانت بلاد العرب تجلب عدداً كبيراً من الرقيق من الجنسين، تشتريهم من أسواق العراق والشام، وتوكل إليهم القيام بأعمال مختلفة، خصوصاً الأعمال التي تحتاج إلى خبرة ومهارة فنية ودراسة.[12] ولاشك أن هؤلاء الرقيق الوافدين إلى بلاد العرب قد حملوا معهم - في جملة ما حملوا - أساطيرهم.

د - كانت للعرب علاقة كبيرة مع أسواق الشام، والعراق وأسواق فنيقية وبابل، وقد سيطروا على التجارة مع الشرق الأقصى. وكانت في خزائنهم غلات جزائر الهند، مما كان يضاهي خزائن البندقية إبان عظمتها[13] ولاشك أن احتكاك العرب بكل هذه البلدان وأسواقها، بالإضافة إلى احتكاكهم بالفرس والروم، عن طريق الغساسنة والمناذرة، قد جعلهم يقفون على أحوال هذه الشعوب، ويأخذون عنها، ويتأثرون بها. وكما أكد ذلك غوستاف لوبون، فإنه "من الصعب أن نعثر في التاريخ على أمة ذات شأن كبير في التجارة من غير أن تكون متمدنة. وبما أن علاقات العرب التجارية العالمية استمرت ألفي سنة، وقد ورد ذكرها في التوارة،

فإننا نقول إن العرب ضربوا بسهم وافر في ميدان الحضارة.»[14] وهكذا فإن الشرط الموضوعي الثاني لنشأة الأساطير قد تحقق هو الآخر في شبه جزيرة العرب، فإن ماتحقق من انفتاح العرب على الأمم والحضارات الأخرى، حتى وإن لم يكن كلياً، كان كافياً ليفسح الطريق أمام هجرة الأساطير.

٣- ضرورة قيام المجتمع على أساس من النظم والمؤسسات والأعراف والتقاليد. ومجتمع هذا هو حاله، لابد أن توجد فيه الأساطير، لأن من بين أبرز الوظائف التي تلعبها الأسطورة، الحديث عن نشأة المؤسسات (الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية . . .) والأعراف والتقاليد، وكذا تسويغ وجودها، وشرح مكانتها في المجتمع. وفيما يخص المجتمع العربي الجاهلي، لاأعتقد أن أحدا يمكنه أن ينكر أنه كانت له - كباقي المجتمعات الإنسانية - مؤسساته وأعرافه وتقاليده ونظمه. صحيح أني لاأوافق بعض الباحثين العرب الذين غالوا في أحكامهم، وفي تصورهم للأنظمة التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي، كما فعل حسين الحاج حسن حين قال: «والحقيقة أن المجتمع الجاهلي، مجتمع تسوده العدالة الإنسانية، وتحترم فيه حقوق الإنسان، وتقدر فيه الشخصية الإنسانية حق قدرها.»[15]

ولكني مع ذلك أقول بأن المجتمع الجاهلي كانت له نظمه ومؤسساته وأعرافه. فقد كان مجتمعاً قائماً على الأسرة الأبوية وماتتطلبه من طاعة. وكان مجتمعا متخلفاً بالجبرية التي كانت وليدة البيئة الشاقة الضنينة، كما أنه عرف الشجاعة العمياء التي تدفع أصحابها إلى وأد بناتهم، وتقديم أبنائهم قرباناً للآلهة. لقد عرف المجتمع الجاهلي الزراعة على قلتها، وتربية المواشي على تنوعها، كما عرف بعض الحرف، ومارس التجارة. كان مجتمعا قبلياً حيث تشكل كل قبيلة وحدة اجتماعية مستقلة، قائمة على التلاحم القبلي أو على العصبية. وقد عرفت الأسرة الجاهلية نظماً وتقاليد معينة تتعلق بالأب وأبنائه، وبالزوج وزوجاته، وبرب الأسرة وعبيده ومواليه. وكانت للعرب مواسم أدبية، وأماكن مقدسة يحجون

إليها، وكانت لهم عادات وتقاليد عند الفرح، والحزن، والولادة والموت، والجفاف، والإصابة بالمكروه[*]

وإذا كانت الأساطير تتحدث عن نشأة المؤسسات والنظم والأعراف والتقاليد، وتشرحها وتسوغ وجودها وتعلله، فلاشك أنه وجد عند العرب مايسوغ وجود مؤسساتهم وأعرافهم ونظمهم، ومايعللها، ويتحدث عن نشأتها، وعن دورها في المجتمع الجاهلي. وبذلك يتحقق في ذلك المجتمع، الشرط الموضوعي الثالث لنشأة الأساطير.

وإذا كانت هذه الشروط الثلاثة قد تحققت في المجتمع العربي الجاهلي، فما الذي يمنع إذن أن يكون لهذا المجتمع أساطيره؟ البعض[١٦] يرد ذلك إلى الظروف البيئية، حيث يرى أن العربي عاش في صحراء واسعة كل شئ فيها واضح. فلم يكن فيها ضباب، أو غابات، أو جبال تغذي الخيال، ومن ثم نشأ العربي قليل الأساطير، وهذا رأي، في نظري، لايقوم على أي أساس، فإذا كان العربي قد عاش في صحراء شاسعة من الرمال، فإن قبائل الإسكيمو عاشت - وتعيش - هي الأخرى في صحراء شاسعة من الجليد، ليس فيها غابات ولا جبال ولا وديان تغذي الخيال، ومع ذلك فلها أساطيرها. والبعض الآخر[١٧] يسوغ غياب الأسطورة العربية بضعف قابلية العقلية العربية لخلق الأساطير، وذلك لأن الخيال العربي، خيال تصويري، وليس خيالا إبداعياً. وفي نظري، هذا الرأي لايقوم، أيضاً، على أي أساس، لأن عقليات كل القبائل والشعوب والحضارات قابلة لتوليد الأسطورة. فإذا استثنينا اليونان، والفراعنة، والرومان، والآشوريين، والبابليين، وبعض الأمم الأخرى التي وصلت إلى درجة رفيعة من الحضارة، وأبانت عن عقلية خلاقة في عدة مجالات إبداعية، فإن مجموعة كبيرة من الشعوب والقبائل والعشائر، لم تصل إلى هذه الدرجة من الحضارة، ولم تكن لديها نفس هذه العقلية الإبداعية، ومع ذلك كانت لها أساطيرها. فلو نظرنا إلى الهنود الحمر السكان الأصليين للقارة

الأمريكية، وإلى السكان الأصليين لقارة استراليا، وإلى القبائل التي تسكن أدغال الأمازون، وإلى القبائل التي تسكن غابات غينيا الجديدة، وغيرهم كثير، لوجدنا أن أغلب هذه المجتمعات والشعوب والقبائل، أقل تحضراً من العرب، ومع ذلك كانت لهم أساطيرهم، فلماذا يكون لكل القبائل، والعشائر، والمجتمعات الإنسانية أساطيرها، ولايكون للعرب أساطيرهم؟

لاشك أننا إذا أسقطنا من حسابنا التسويغين السابقين، وتأكدنا من تحقق بعض الشروط الموضوعية التي تسمح بنشأة الأساطير، أمكننا القول بأن العرب كانت لهم أيضاً أساطيرهم. صحيح أن مابين أيدينا من النماذج قليل جداً، ولكن القلة لاتعني الغياب، وإنما تعني، بكل تأكيد، الوجود. ففي التراث العربي هنالك بعض الحكايات التي يمكن أن نطلق عليها مصطلح (أسطورة)، بالمفهوم الأنثروبولوجي الحديث، حيث إنها حكايات قدسية، وقعت في بداية الزمن، وتسعى إلى وضع نظام أولي للعالم، وللإنسان وللأشياء، كما أنها حكايات خلق، بالإضافة إلى أنها تتحدث عن أصل بعض الظواهر والمؤسسات. بل أكثر من ذلك، يمكن تصنيفها - على قلتها - حسب التقسيم الذي قام به (ميرسيا إلياد) Mircéa Eliade للأساطير. حيث قسمها إلى أساطير كونية (Mythes Cosmogoniques) وأساطير الأصل (Mythes d'origine) [*]. ولعل هذا يتأكد من خلال النماذج التالية:

١- أساطير كونية:

■ **أسطورة عن خلق الكون:** "قال: إن الله عز وجل كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء فسما عليه، فسماه سماء. ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين، يوم الأحد ويوم الإثنين، فخلق الأرض على حوت، والحوت النون الذي ذكره الله تعالى في القرآن في قوله ﴿نٓ والقلم﴾،

والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على الصخرة، والصخرة في الريح، وهي الصخرة التي ذكرها لقمان، ليست في السماء ولافي الأرض، فتحرك الحوت فاضطربت وتزلزلت الأرض، فأرسى عليها الجبال فقرت. فالجبال تفخر على الأرض. (. . .) وكل يوم من هذه الأيام الستة التي خلق الله فيها السماء والأرض كألف سنة.»[١٨]

■ **أسطورة عن خلق الشمس والقمر:** «فإنهما على عجلتين، لكل عجلة ثلاثمائة وستون عروة، يجرها بعددها من الملائكة وأنهما يسقطان عن العجلتين فيغوصان في بحر بين السماء والأرض، فذلك كسوفهما، ثم إن الملائكة يخرجونهما فذلك تجليهما من الكسوف.»[١٩]

■ **أسطورة عن خلق الكون أيضاً:** يذكر الثعلبي أنه قبل خلق السماوات والأرض كانت هناك «جوهرة خضراء، حجمها أضعاف السماوات والأرض. نظر الله إليها نظرة هيبة فصارت ماء، ثم نظر إلى الماء فغلى وارتفع منه دخان وزبد وبخار (. . .) وخلق من ذلك الدخان السماء، ومن ذلك الزبد الأرض، وأول ماظهر من الأرض على وجه الماء مكة. «ثم دحا الله الأرض وجعلها في سبع طبقات، وكلف ملكاً نفذ إلى قعرها بحملها وضبطها، وجعله يستقر فوق ثور له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة . . . وكان الثور مستقراً على صخرة خضراء فردوسية، والصخرة على حوت (نون، لوتيا) والحوت على البحر، والبحر على متن الريح، والريح على القدرة. . .» ثم يضيف الثعلبي كيف وسوس إبليس للحوت كي يلقي عنه حمله الثقيل، وكيف هم لوتيا أن يستجيب له، لولا مشيئة الله التي قضت أن تدخل دابة في منخر الحوت لتنفذ إلى دماغه وتعذبه «حتى عج إلى الله منها، فأشفق الله عليه، وأذن لها بالخروج، ومنذ ذلك الحين والحوت ينظر إلى الدابة، وهي تنظر إليه، إن هم بشيء مما وسوس إليه الشيطان، عادت.»[٢٠]

٢- أساطير الأصل:

■ **أسطورة خلق آدم:** " فلما أراد الله أن يخلق آدم، أمر جبريل أن يأتيه بطين من الأرض، فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص مني وتشينني، فرجع ولم يأخذ منها شيئاً، وقال: يارب إنها عاذت فأعذتها. فبعث ميكائيل فاستعاذت منه، فأعاذها فرجع، وقال مثل جبريل. فبعث إليها ملك الموت، فاستعاذت منه. ، فقال: أنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمر ربي. فأخذ من وجه الإرض، فخلطه ولم يأخذ من مكان واحد. وأخذ من تربة حمراء، وبيضاء، وسوداء، وطينا لازبا، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين. "[٢١]

■ **أسطورة أصل كوكب الزهرة:** لما وقع الناس من بعد آدم في الضلال، شرعت الملائكة تطعن في أعمالهم، فأراد الله أن يبتلي الملائكة أنفسهم، فأمرهم باختيار ملكين من أعظم الملائكة علماً وزهدا وديانة. فاختاروا هاروت وماروت. وأهبطا إلى الأرض بعد أن ركبت بهما شهوات الإنس، وأمرا أن يعبدا الله ولايشركا به أحدا، ونهيا عن قتل النفس والزنا وشرب الخمر، وغير ذلك من المعصيات. وفي الأرض عرضت لهما امرأة - وهي الزُّهرة - جميلة كالزهرة بين الكواكب. فغلبت عليهما الشهوة، فأقبلا عليها، وراوداها عن نفسها فأبت إلا أن يكونا على أمرها ودينها، وأخرجت لهما صنما يعبدانه ويسجدان له، فامتنعا. وصبرا ردحا، ثم أتياها وراوداها عن نفسها، فأبت ثانية واشترطت عليهما إحدى ثلاث:

إما عبادة الصنم، أو قتل النفس، أو شرب الخمر. فقالا كل ذلك لاينبغي، ثم احتدمت بهما الشهوة فأثرا أهون المطالب وهو شرب الخمر. فسقتهما حتى إذا أخذت الخمرة منهما وقعا بالزهرة، وهنا يمر بهما إنسان فيخشيان الفضيحة فيقتلانه. ويشاآن الصعود إلى السما بعد أن عرفا وقوعهما في الخطيئة فلا يستطيعان، ويكشف الغطاء بينهما وبين أهل السماء. فتنظر الملائكة إلى ماوقعا فيه

من الذنب، فيعجبون كل العجب ويأخذون بالاستغفار لمن في الأرض من البشر. ويروى أنها طلبت منهما تعليمها الذي يصعدان به إلى السماء، فعلماها وعرجت به إلى السماء، وهناك نسيت ماتنزل به، فبقيت مكانها، وجعلها الله ذلك الكوكب الجميل.[٢٢]

■ **أسطورة أصل الآلهة ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر:** "كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوما صالحين، ماتوا في شهر، فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل، ياقوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصناف على صورهم، غير أني لاأقدر أن أجعل فيها أرواحا؟ قالوا: نعم، فنحت لهم خمسة أصناف على صورهم، ونصبها لهم، فكان الرجل يأتي أخاه، وعمه، وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله حتى ذهب ذلك في القرن الأول . . . ثم جاء قرن آخر فعظموهم أكثر من تعظيم القرن الأول. ثم جاء من بعدهم القرن الثالث، فقالوا: ماعظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله، فعبدوهم، وعظم أمرهم."[٢٣]

■ **أسطورة أصل تسمية الجبال الثلاثة: أجا، وسلمى والعوجاء:**

"هناك ثلاثة أجبل: أجا وسلمى والعوجاء. وذلك أن أجا اسم رجل تعشق سلمى وجمعتهما العوجاء. فهرب أجا بسلمى وذهبت معهما العوجاء، فيتبعهم بعل سلمى، فأدركهم وقتلهم، وصلب أجا على أحد الأجبل، فسمي أجا، وصلب سلمى على الجبل الآخر، فسمي بها، وصلب العوجاء على الثالث، فسمي باسمها."[٢٤]

■ **أسطورة تعلل الوضعية الفلكية لكل من الثريا والدبران والعيوق:** "أراد القمر أن يزوج الدبران من الثريا حينما خطبها، فأبت عليه، وولت عنه، وقالت للقمر: ماأصنع بهذا السبروت الذي لامال له؟ فجمع الدبران قلاصه يتمول بها، فهو يتبعها حيث توجهت، يسوق صداقها قدامه. غير أن العيوق عاق الدبران عن لقاء الثريا، فسمي بذلك."[٢٥]

■ **أسطورة أصل الكوكب سهيل**: "سهيل كوكب لايرى بخراسان ويرى بالعراق. قال الليث: بلغنا أن سهيلاً كان عشارا على طريق اليمن ظلوماً، فمسخه الله كوكباً." (٢٦)

هذه بعض النماذج الأسطورية الموجودة في التراث العربي وبالرغم من أن الأساطير التي تم العثور عليها حتى الآن في التراث العربي قليلة، إلا أنها مع ذلك تستجيب، في عدد من جوانبها، للمفهوم الأنثروبولوجي الحديث. فهي حكايات - وهذه نقطة أساسية، لأنه على مجموعة من الدارسين العرب أن ينتبهوا إلى أن ماكل ماليس حكاية أسطورة - إضافة إلى أنها تتحدث عن خلق الكون، أو خلق جزء منه. كما أنها تحكي عن أصل بعض الأشياء، كبعض الكواكب والجبال والأصنام. ولأنها تتحدث عن الخلق أو الأصل، فمعنى ذلك أنها وقعت في بداية الزمن. ولأن الله موجود في أغلبها، حيث يعاقب ويخلق ويمسخ، فمعنى ذلك أنها قدسية، فإن هذا مايخلق بينها وبين أساطير الشعوب والحضارات الأخرى نقط التقاء وتشابه. لذلك أعتقد إنه أصبح لزاما على الدراسات العربية، التي تهتم بالأساطير العربية، أن تأخذ اتجاهاً جديداً. بناء على الملاحظات التالية:

١ - إذا كنا نبحث في الأسطورة العربية، فلا ينبغي أن يكون ذلك فقط من أجل الرد على الدراسات الاستشراقية والغربية التي ترى أن التراث العربي لايشتمل على أساطير. وإنما ينبغي أن يكون ذلك من أجل معرفة تراثنا. ومعرفة من نحن من خلال هذا التراث. ينبغي أولا أن نقنع أنفسنا بوجود هذه الأساطير، قبل أن نقنع الآخر، فمحاولة إقناع الآخر قد تجعلنا نبتعد عن الموضوعية، ونسقط في الذاتية، ونحاول بالتالي أن نغالط أنفسنا ونغالط هذا الآخر. لكن يجب أن نعلم أنه حتى وإن أفلحنا في ذلك، فإننا لن نفلح في مغالطة التاريخ.

٢ - عوض أن نأتي بكل شيء، وبأي شيء وندعي أنه أساطير، علينا أن ننكب على دراسة هذه الأساطير القليلة الموجودة في التراث العربي، ونتساءل عن

سبب قلتها: أهذا كل ماأنتجته العقلية العربية؟ فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا* أم أن هذه القلة تعود إلى أننا لم نبحث في المكان المناسب، وبالشكل المناسب عن بقية ماأنتجته العقلية العربية من أساطير؟

٣-يجب أن تتغير نظرتنا إلى الأسطورة، بحيث نترك جانباً المفهوم المعجمي - القائم على أساس أن الأساطير أباطيل، وأكاذيب - ونضع نصب أعيننا ماوصلت إليه مختلف العلوم الإنسانية فيما يتعلق بالأسطورة وبقيمتها، ومكانتها ودورها في المجتمع، وفي التعبير عن آماله وطموحاته وآلامه ومآسيه، ورغبته في تحقيق النظام والاستقرار. فإذا استطعنا أن نؤمن بهذا المفهوم، فلا شك أنه سيصبح من السهل علينا أن نطلق مصطلح (أسطورة) على بعض الحكايات العربية التي لم نكن نجرؤ على إدخالها في إطار الأسطورة خوفاً من أن نتهم بالمس بالمقدسات أو بتزوير التاريخ.

الهوامش

(*)- انظر على سبيل المثال: عبدالمالك مرتاض: **الميثولوجيا عند العرب** - دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - الدار التونسية للنشر - ١٩٨٩م. وانظر كذلك:

Joseph Chelhod: **Les Structures du Sacré chez les arabes**- Islam d'hier et d'aujourd'hui - Maisonneuve et larose - Paris - 1986.

١- محمود السيد حسن مصطفى: **الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية** - مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية - الطبعة الأولى - ١٩٨١، ص: ١٩.

٢- السيد عبدالحافظ عبد ربه: **بحوث في قصص القرآن** - دار الكتاب اللبناني - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٧٢- ص: ٣٣-٣٤.

(*) انظر على سبيل المثال: حسين الحاج: **الأسطورة عند العرب في الجاهلية** - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - ط ١ - ١٩٨٨.

وانظر كذلك: أنور أبوسليم: دراسات في الشعر الجاهلي - جامعة مؤتة - دار الجيل - بيروت - دار عمار - عمان - ط١ - ١٩٨٧.

٣- يحيى شامي: الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام، دار الفكر اللبناني - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٦، ص: ١٧.
٤- أحمد ديب شعبو: **سفر التكوين في أساطير الإغريق وقدماء العرب** - الفكر العربي المعاصر - عدد ٥٢/٥٣ - مايو - يونيو - ١٩٨٨ - مركز الإنماء القومي - بيروت / باريس - ص ٥١.
٥- محمد إبراهيم الفيومي: **في الفكر الديني الجاهلي** - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٩٨٢، ص: ٧.
٦- أنور الرفاعي - نقلاً عن محمد إبراهيم الفيومي - المرجع السابق، ص: ٢٦٤.
٧- انظر على سبيل المثال محمد عبدالمعيد خان: **الأساطير والخرافات عند العرب** - سلسلة العلوم الاجتماعية - دار الحداثة - بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٠، ص: ٤٥ ومابعدها.
٨- غوستاف لوبون: **حضارة العرب** - نقله إلى العربية عادل زعيتر طبع بدار إحياء الكتب العربية - القاهرة - الطبعة الثالثة - ١٩٥٦، ص: ٩٨.
٩- ول ديورانت: **قصة الحضارة** - ترجمة محمد بدران - جامعة الدول العربية - الطبعة الثالثة - ١٩٦١، ج٢، ص: ٣٠٩-٣١٠.
١٠- غوستاف لوبون: **حضارة العرب**، ص٩٣؛.
١١- جواد علي: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٦٨، ج٨، ص: ٧٠١.
١٢- جواد علي: المرجع نفسه، ج٨/ ص: ٧٠٢-٧٠٣.
١٣- ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ج٢ / ص: ٣٠٩-٣١٠.
١٤- غوستاف لوبون: **حضارة العرب**، ص: ٩٥.
١٥- حسين الحاج حسن: **الأسطورة عند العرب في الجاهلية**، ص: ١٠٣.
(*)- للاطلاع أكثر على نظم وأعراف ومؤسسات المجتمع الجاهلي، انظر على سبيل المثال: + برهان الدين دلو: **جزيرة العرب قبل الإسلام** (التاريخ الاقتصادي - الاجتماعي - الثقافي والسياسي) دار الفارابي - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٩.
+ جواد علي: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٦٨.
+ محمود شكري الألوسي: **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب** - عني بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجة الأثري - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية - بدون تاريخ.
١٦- انظر على سبيل المثال: سير شارلزليال: مظاهر الوصف في الشعر الجاهلي - نقلاً عن عبدالفتاح محمد أحمد: **المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي** - دراسة نقدية - دار المناهل، بيروت الطبعة الأولى، ص٩٨.
١٧- انظر على سبيل المثال: محمد عبدالمعيد خان: **الأساطير والخرافات عند العرب**، ص: ٤٧.

(*) يرى ميرسيا إلياد أن كل أسطورة تحكي كيف جاء شيء ما إلى الوجود: العالم أو الإنسان، أو نوع من الحياة، أو مؤسسة اجتماعية . . . إلخ وكل ظهور جديد يفترض وجود العالم، لذلك فإن خلق العالم سابق على كل خلق آخر. ولذلك فإن (الأساطير الكونية) تتمتع بأسبقية خاصة كما أن (الأسطورة الكونية) تصلح كنموذج لكل أساطير الأصل: انظر:
Mircea Eliad: Aspects du mythe: collection Fo:io -essais Gallimard - paris, 1989.

١٨- ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** - تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي - دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٩٨٧، المجلد الأول - ماقبل الهجرة، ص: ٢٠.
١٩- ابن الأثير: المرجع نفسه ص: ٢٢.
٢٠- أبو إسحاق الثعلبي: **قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس**. القاهرة - ١٩٧٣، ص: ٤-٥.
٢١- ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، المجلد الأول، ص: ٢٦.
٢٢- الطبري: **جامع البيان عن تأويل أي القرآن** - دار الفكر - بيروت - ١٩٤٨، ج١، ص: ٣٤٣-٣٤٦ بتصرف.
٢٣- ابن الكلبي: **كتاب الأصنام** - تحقيق أحمد زكي - مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة - ١٣٤٣هـ ص: ٥١-٥٢.
٢٤- ابن منظور: **لسان العرب** - تحقيق: عبدالله علي الكبير - محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي - دار المعارف - القاهرة - المجلد ١، ص: ٣٠.
٢٥- ابن منظور: **لسان العرب**، المجلد٢، ص: ١٣٢٠.
٢٦- المرجع نفسه، المجلد٣، ص: ٢١٣٥.